

الإلهيات: مبدأ السببية والبرهنة والاستدلال على إثبات وجود الله

[The science of Theology: the Causality Principle and it's Role in illustrating and Proving the Existence of God]

Samir Elouasbi & Adel M. Abdulaziz Al-Geriani¹

- 1 Thought and Society Laboratory, Chouaib Dokali University, Av. des Facultés, El Jadida 24000, Kingdom of Morocco. E-mail: samir.elouasbi7@gmail.com
- 2 Research Institute for Islamic Products and Malay Civilization (INSPIRE), University Sultan Zainal Abidin (UniSZA), Gong Badak Campus, 21300 Kuala Nerus Terengganu, MALAYSIA.
E-mail: adelmaziz@unisza.edu.my

* Corresponding Author: adelmaziz @unisza.edu.my

الملخص

المقدم في الاعتبار بشهادة العقل والنقل هو معرفة المبدأ والمعاد المشار إليهما بالإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وكذا البحث في الأدلة على وجود الله، وصفاته، وأسمائه، فشكّل مبدأ السببية منهجًا للبرهنة والاستدلال على القضايا المرتبطة بجانب الإلهيات. وعليه يمكن إجمال إشكالية البحث كالتالي: ما القواعد الفكرية التي تكون في مجموعها مبدأ السببية كمنهج استدلاي مستنبط من الآيات القرآنية في إدراك القضايا العقيدة المرتبطة بجانب الإلهيات، وخاصة مسألة إثبات وجود الله، والرد على دعاوى الإلحاد. والهدف الأساس للدراسة، تحديد أهم القواعد الفكرية التي تحدد الصياغة الواضحة لمبدأ السببية للاستدلال والبرهنة. والمنهج المعتمد في البحث هو المنهج الإستقرائي للنصوص والمقارنة المنهجية. ومن نتائج هذا البحث أن التأصيل لمنهج علمي مستنبط من الآيات القرآنية في فهم وإيضاح مواضيع العقيدة الإسلامية من خلال تحديد مبدأ السببية كمنهج معرفي يقرر الأدلة العقلية والعلمية للرد على دعاوى الإلحاد ونظريات وتصورات التشكيك في الوجود الإلهي.

الكلمات المفتاحية: الإلهيات، مبدأ السببية، العقيدة الإسلامية، الوجود الإلهي.

Abstract

What is presented in consideration of the testimony of reason and transmission is the knowledge of the principle and the return referred to by the belief in God Almighty and the Last Day, as well as the search for evidence for the existence of God, His attributes, and His names. Accordingly, the problem of the research can be summarized as follows: What are the intellectual rules that collectively constitute the principle of causality as a deductive method deduced from the Qur'anic verses in understanding doctrinal issues related to the aspect of theology, especially the issue of proving the existence of God, and responding to claims of atheism? The main objective of the study is to identify the most important intellectual rules that determine the clear formulation of the causal principle of inference and proof. The method adopted in the research is the inductive approach to texts and systematic comparison. The results of this research: the rooting of a scientific method deduced from the Qur'anic verses in understanding and clarifying the topics of the Islamic faith by defining the principle of causality as a cognitive method that determines the rational and scientific evidence to respond to the claims of atheism, theories and perceptions of questioning the divine existence.

Keywords: Theology, the principle of causality, Islamic faith, divine presence.

Cite This Article:

Samir Elouasbi & Adel M. Abdulaziz Al-Geriani. 2023. al-Ilahiyat: Mabda' al-Sababiyah al-Burhanat wa al-Istidlal 'ala Isbat Wujud Allah [The science of Theology: the Causality Principle and it's Role in illustrating and Proving the Existence of God]. *BITARA International Journal of Civilizational Studies and Human Sciences* 6(1): 22-30.

المقدمة

سعي العبد المكلف كمقصد أسمى وغاية مثلى هو توحيد الله لينال رضاه وتكون الجنة مثواه، ولا يكون ذلك إلا من خلال العلم يقينا بوجود الله وإحقاق العبودية له وسبيل ذلك هو التفكير في آيات الله الباهرة والأدلة القاهرة، والتفكير لا بد وأن يحاط بهدي رباني قوامه النهي عن التفكير في ذات الله عزوجل، والحث على النظر في آياته الكونية المرئية، وآياته الشرعية المقروءة، ونعمه التي تغمر الإنسان وتحيط به. فعقل الإنسان المحدود لا يمكن أن يدرك ذات الله عزوجل أو يتصورها، وكل من يتوهم شيئا في مخيلته فهو يرسم شكلا يتوهمه الله عزوجل، فإنه مشبه والمشبه يعبد صنما، كما أن المعطل يعبد عدما، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التفكير في ذات الله تعالى، وأمر بالتفكير في آياته، عن عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- قال: ((خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فِيمَ تَتَفَكَّرُونَ " ، قَالُوا: نَتَفَكَّرُ فِي اللَّهِ قَالَ: " لَا تُفَكِّرُوا فِي اللَّهِ ، وَتَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّ رَبَّنَا خَلَقَ مَلَكًا قَدَمَاهُ فِي الْأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَى ، وَرَأْسُهُ قَدْ جَاوَزَ السَّمَاءَ الْعُلْيَا، مَا بَيْنَ قَدَمَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ مَسِيرَةُ سِتِّمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ كَعْبَيْهِ إِلَى أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ مَسِيرَةُ سِتِّمِائَةِ عَامٍ، وَالْخَالِقُ أَعْظَمُ مِنَ الْمَخْلُوقِ)) (al-Asfani 1996:6/66). وقد قال السخاوي في المقاصد الحسنة بعد أن أورد حديث عبد الله بن سلام وحديث ابن عباس وحديث ابن عمر، قال: "وأسانيدها ضعيفة، لكن اجتماعها يكتسب قوة، والمعنى صحيح" (al-Sakhawi 1985: 261).

قال ابن أبي زيد القيرواني المالكي في الرسالة: "لا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون.. يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في ماهية ذاته" (al-Qiarawani 2007: 56) ومدار فهم المسألة في عدم إدراك ذات الله، يتم من خلال معرفة حدود التفكير بمعرفة النهيين، ورصد علة النهي وتصويب جهة التفكير في مسألة وجود الله.

النهي الأول: لا تدرك حقيقة ذاته (كنهه) صفته؛ أي: حقيقتها، وتصورها وماهيتها، وكيفيتها.

النهي الثاني: ولا تعد صفاته وأسمائه إذ لا يبلغ عد صفاته الواصفون، ولا تبلغ أسماءه وصفاته حدًا ولا كنهًا ولا وصفًا ولا عدًا؛

علة النهي: لا يبلغون أمر الله جل وعلا، فإذا كان علم الله لا يحاط به، فإذا ذاته من باب أولى. **تصويب جهة التفكير:** المتفكرون يعتبرون بآياته الباهرة، وآياته نوعان:

النوع الأول: آيات الله الكونية خلقية، كالشمس والقمر والشجر والبحر والشجر والماء والخلق، وما خارج هذا الكون، هذه من آيات الله الكونية الخلقية.

والنوع الثاني: آيات الله الشرعية الخلقية في أحكامه، في كلامه، في حلاله في حرامه، آياته الشرعية، ومن آياته الشرعية القرآن، من آياته الشرعية أحكام التنزيل، العبادات.

وما زال علماء الإسلام يتفكرون في أوامره ومقاصد دينه ولم يبلغوا لها حدًا، وما زال العلماء يتفكرون في آيات الله الكونية ولم يبلغوا لها حدًا، سواء أكانت آيات آفاق أو أنفس.

والقصد الشرعي من النهي عن التفكير في ذات الله هو عدم حصول هلاك المكلف؛ فالتفكير في ذات الله يفضي إلى الزندقة وإلى الإلحاد، والتفكير في آلاء الله وآياته الشرعية والكونية يفضي إلى تقوية الإيمان وتزكية النفس.

مبدأ السببية وقواعد التفكير الشرعي

إن معرفة الله تعالى ممكنة، ولكن معرفة كنه ذاته المقدسة ممتنعة، لأن العقول لا تحيط بحقيقة ذاته، كيف يحيط العقل وهو مخلوق بكنه حقيقة خالقه. والله تعالى يعرف بآياته وآثار صنعه، وذلك لأن طرق معرفة الشيء والحكم عليه تكون من خلال القواعد الفكرية الثلاث:

الأول: المعاينة والمشاهدة؛ وهذه دلت النصوص الشرعية على أنها غير واقعة في حق الله عز وجل في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (Al-An'am: 103). وروى مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **يَوْمَ حَدَّرَ النَّاسَ الدَّجَالَ: ... ((تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدًا مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ))** (Sahih Muslim/kitab Al iman wa Al islam.No 169).

الثاني: المماثلة والمقايسة؛ قياسه على شيء مثله قد رآه الشخص، فيحكم من خلال المرئي على مماثله الذي لم يره.. وهذه أيضا مستحيلة في حق الله عز وجل، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (Ash-Shuraa:11).

الثالث: الآثار الدالة المحسوسة؛ الحكم على الشيء ومعرفته من خلال آثاره المرئية المحسوسة بأنه قادر - مثلاً- إذا لاحظ آثار قدرته، أو أنه حكيم إذا لاحظ آثار حكمته... وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن للإنسان من خلالها أن يدرك ويتيقن أن الله تعالى واحد لا شريك له، وأنه متصف بكل كمال يليق به جل وعلا، منزّه عن كل نقص.

ويظهر أن المسلك والطريق الاستدلالي العقلي لإثبات وجود الله، هو حدوث العالم كدليل على وجود الله يحكمه مبدأين مستخلصين من الآيات القرآنية هما مبدأ السببية، ومبدأ التجويز، وسنقتصر في بحثنا على مبدأ السببية.

صور مبدأ السببية (الأنفس والآفاق)

مبدأ السببية يتحدد في صورتين هما خلق الأنفس، وخلق الآفاق، فكان هذا الاستدلال مبني على أن لكل حادث محدث وهي طريقة مستنبطة من منهج القرآن المنبه على وجود الله انطلاقاً من مخلوقاته من خلال حدوث العالم. مبدأ السببية: ما دامت السببية غير موجودة في ظواهر الكون بحيث لا يمكن للأشياء أن تخلق نفسها بنفسها. ولا تكون سبباً لبعضها فإن الله وحده هو الخالق.

وردت كلمة (سبب) في القرآن الكريم في ثمانية مواضع، وقيل لكل شيء وصلت به إلى موضع أو حاجة تريدها (Abd al-Baqi: 429.1945).

وعلاقة السببية واضحة في كتاب الله تعالى، فالموجودات مرتبطة فيما بينها بعلاقة هي السبب قد ندرك هذه العلاقة وقد لا ندركها لعلنا النسبي في فهم واستيعاب آيات الله في الأنفس والآفاق بالشكل الدقيق لحكمة ربانية أن عظمة الله في الخلق هي القصد الذي على الإنسان أن يصل إليه لتطيب الأنفس وتجتهد في السعي لتحقيق السعادة في الدارين الدنيا والآخرة، وفي هذا يقول سعد الدين التفتازاني في كتابه شرح المقاصد: "اعلم أن الإنسان قوة نظرية كمالها معرفة الحقائق كما هي، وعملية كمالها القيام بالأمر على ما ينبغي تحصيلاً لسعادة الدارين" (Al-Taftazani : 2001.4/1) ، فلا يوجد شيء إلا بوجود سببه، في الكون والإنسان والأحكام؛ فكل سبب موجود يؤدي إلى نتيجة محققة نستخلص منها عبرة معتبرة لها ميزة في ترسيخ عقيدة المؤمن وتركيبه نفسه وتصويب سلوكه، في إثبات كمال عبوديته لله عز وجل، وهذا ما يمكن أن نستنبطه من تحقق مقاصد السببية في نظام الكون وعلاقات الإنسان والأحكام الدينية من خلال الآيات القرآنية التالية:

فمن أمثلة السببية في نظام الكون؛ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُفِّتْهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (Al-Ar'raf:57). علاقة السببية تتحدد في كون أن نزول الماء كان بسبب السحاب، وخروج النبات كان بسبب الماء، هي سلسلة سببية أدت إلى نتيجة وهي حصول الثمار لنستخلص الدروس والعبر أن خالق الكون ومدبره والمنعم على الإنسان بتسخير مخلوقاته هو الله، ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيٍّ﴾ (Al-Hijir: 5). قال الرازي: "لا شك أنه تعالى قادر على خلق هذه الثمار ابتداء من غير هذه الوسائط... إلا أنا نقول: قدرته على خلقها ابتداء لا تنافي قدرته عليها بواسطة خلق هذه القوى المؤثرة والقابلة في الأجسام... وإنما أجرى الله تعالى العادة بأن لا يفعل ذلك إلا على ترتيب وتدرج" (Al-Razi: 1981.2/121). وفي الآية. أيضاً. إشارة إلى أن الأحوال الإنسانية هي الأخرى مرتبطة بأسبابها، كإحياء الموتى.

والإنسان محتاج في وجوده المعيشي إلى الله فإن أدى الإنسان واجب الشكر فقد أتى بقيد بقاء النعم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (Ibrahim: 7)، هو اعتراف القلب بنعم الله والثناء على الله بها وصرافها في مرضاة الله تعالى. وكفر النعمة ضد ذلك (Al-Sa'di 2002: 256). وفي حال انتفاء الشكر ترفع نعم الله تباعا لتنبية الخلق إلى قيمة رغد العيش قل كفه وحجمه أو كثر.

ومن أمثلة السببية في الأحكام؛ أن الله تعالى ربط الثواب والعقاب بأسبابهما، فالردة أو الكفر سبب للخروج من الملة، والزنا أو شرب الخمر أو القتل العمد سبب للقصاص، والاستغفار مع التوبة سبب للمغفرة، والإيمان مع العمل الصالح سبب لدخول الجنة، يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (Al-Furqan 68-70).

فالحكم الديني تحدد تبعا لطبيعة ونوع السبب، فإن كان السبب حسنا وترضاه الأنفس الطيبة وأقره الشرع الحكيم ترتب عند فعله الجزاء الأوفى سواء في الدنيا بنعيم الطمئنينة أو ثواب الأجر في الآخرة، وإن كان السبب قبيحا ترتب عنه عقوبة الزجر في الدنيا بالعيش الضنك أو الخزي بسوء مصير في الآخرة.

ومن أمثلة السببية في علاقات الإنسان؛ المبدأ الأساس كسبب في علاقات الإنسان هو القول والعمل الحسن، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (Al-Baqarah: 83). هذه عبارة قرآنية من كلام الرب جل وعلا، معيار لحسن خلق صاحبها، وفي مقابل سبب الاحسان كان على من وقع عليه المعروف أن يكافئه صاحب المعروف

بالثناء الحسن والشكر الجزيل، عن جابر بن عبد الله قال: قال النبي عليه السلام: ((من صنع إليه معروف فليجزئه فإن لم يجد ما يجزئه فليثن عليه فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره وإن كتبه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط فكأنما لبس ثوبي زور، إذن إذا لم تستطع مكافأته فاذكر معروفه بين الناس، واثن عليه، فإذا كتبت ذلك فقد كفرت بمعرفه)) (Sahih Al-Bukhari/Al-Adab al mufrad. No 215).

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من أتى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا فادعوا له حتى يعلموا أن قد كافأتموه)) (Sunan Al Nasa'i/Bab la urad man sa'i belallah.No.2567). ونلاحظ أن هذه الأسباب إنما هي أسباب جعلية وليست ذاتية، أي: جعلها الله تعالى أسباباً وربط بينها، وله أن يفصل هذا الارتباط، فيوجد المسبب دون سبب، كما هو الشأن في المعجزات، فالنار محرقة وقد سُلِّيت هذه الخاصية في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (Al-69 : Anbya). والبحر مُعْرِقٌ وسُلِّيت منه هذه الخاصية في قصة موسى عند العبور مع بني اسرائيل، قال الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (الشعراء: Ash-63 : Shur'ara).

وبرهان ذلك في كون الموجودات ترجع في الحقيقة إلى المشيئة الإلهية إن أراد الله لها التأثير في بعضها من عدمه، وينقسم هذا البرهان إلى أمرين في نسبة الأسباب الجعلية إلى الله :

أولهما: صيغ السببية التي تشير إلى أن هذه الأسباب جعلية.

الصورة الأولى: أن يُضيفه إلى الله وحده. وذلك بدلالة الضمير، أو اسم الجلالة، فكلمات مثل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِيَلْدَ مَيْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (al-A'raf:57).

الصورة الثانية: أن يُضيفه إلى الله تعالى مفروناً بسببه المعلوم مثل أن يقول: لولا أن الله أنجاني بفلان لعرفت. الصورة الثالثة: أن يُضيفه إلى السبب المعلوم وحده مع اعتقاد أن الله هو المسبب، ومنه قول النبي في عمه أبي طالب لما ذكر عذابه: ((لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)) (Sharah Al-Nawawi ala Musim.Kitab Al iman.Bab Shafa't Al-Nabi S.W.Li Abi Talib wa al takhfif anhu bisababhi No 209).

الصورة الرابعة: أن يُضيفه إلى الله مقروناً بالسبب المعلوم بـ " ثُمَّ " كقوله: لولا الله ثمَّ فلان. وهذه الأربع كلها جائزة. الصورة الخامسة: أن يُضيفه إلى الله، وإلى السبب المعلوم مقروناً بالواو؛ فهذا شرك، كقوله: لولا الله وفلان. الصورة السادسة: أن يُضيفه إلى الله، وإلى السبب المعلوم مقروناً بالفاء، مثل: لولا الله وفلان؛ فهذا محل نظر: يحتتمل الجواز، ويحتتمل المنع. الصورة السابعة: أن يُضيفه إلى سبب مؤهوم ليس بثابت شرعاً ولا حساً فهذا شرك.

ثانيهما: المشيئة الإلهية المطلقة تثبت أن أسباب المخلوقات جعلية

إن الآيات التي تنفي السببية عن الموجودات أي لا يمكن للأشياء أن تخلق ذواتها وتأثر في غيرها هي نفسها دليل على أن الأسباب جعلية وليست ذاتية، كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُعْرِضُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَاغًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) ﴿ (Al-Waqi'ah :63-71).

تؤكد هذه الآيات أن الله تعالى هو صاحب الملك، القائم بأمر الكون كله، المدبر لشؤونه. فهو كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (Ali Imran :26). والسبب الذي يتولد عليه أمر أو فعل ملزم تحقق وجوده بالإذن الإلهي، والمثال التوضيحي على ذلك هو قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِبَصِيرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (Al-Baqarah :102)؛ فالمراد من الإذن - هنا - التخلية بين المسحور وضرر السحر؛ قال الألوسي: "وفيه دليل على أن فيه ضرراً مودعاً، إذا شاء الله تعالى حال بينه وبينه، وإذا شاء خلاه وما أودعه فيه، وهذا مذهب السلف في سائر الأسباب والمسببات" (Al-Alusi :1994.1/343).

والجانب الوظيفي لمبدأ السببية: يتحدد في كونه منهج استدلاي لإقناع الجاحدين والمنكرين لوحداية الله من خلال قاعدة الإطراد في نظام السببية فالشمس مثلا تظهر من جهة المشرق، وتختفي في جهة المغرب، وهذه سنة مطردة، وأن هذا الإطراد خاضع للمشيئة الإلهية، والإطراد يلاحظ بما نراه كل يوم من أمر الشمس، وقد تحدى إبراهيم عليه السلام بمبدأ السببية النمرد بن كنعان، فيقول تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (Al-Baqarah 258). ولكن

هذا الاطراد قد انخرق ليوشع عليه السلام: ((إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لِيَالِي سَارٍ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ.. فغزا، فأدنى للقرية حين صلاة العصر، أو قريباً من ذلك، فلقي العدو عند غيبوبة الشمس، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها عليّ شيئاً، فحُيِّت عليه، حتى فتح الله عليه، فغنموا الغنائم)) (Sahih Al – Bukhari. Kitab al –jihad wa al sair. Bab tahlil al – ghna'm li hazhi al- umah khasah. No. 3124). ولقد جرت سنة الله في مبدأ السببية أن جعله سبيلاً للبرهنة على وجوده، ودعوة للناس إلى توحيدِه بالنظر في موجوداته، والتأمل في مخلوقاته، والتدبر في آياته، فالعقول الراشدة تتيقن من خلاله أن الكون وما فيه من نظام أسباب مترابطة تشكل في مجموعها نسقاً بديعاً يدل على عظمة الله، وهذا المبدأ كفيلاً لكل ذي فؤاد نير أن يعلم أن الطريق المتبع هو منهج الخير وأن من ضل واتبع الهوى وأضاع سبل الرشاد جزى من جنس عمله وصنيعه، إن أمن و أحسن فله الحسنى، وإن كفر وأساء فله ما عليه، ليرتب عن مبدأ السببية مقصد الحتم وهو أمر الله قضاءً منفذاً لا يغير، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (Al-Isra :58). فهذه الآية تشير إلى الحتم الذي لا يتغير، عن قتادة قال: "قضاء من الله كما تسمعون، ليس منه بد، إما أن يهلكها بموت، وإما أن يهلكها بعذاب مستأصل، إذا تركوا أمره، وكذبوا رسله " (Al-Tabari :1994.15/133). ونشير هنا إلى معنى كلمة الحتم التي لم ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، وقد وردت بشأن قضية غيبية هي قضية ورود الناس جهنم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا﴾ (Maryam 71-72). الشاهد في هذه الآية قوله تعالى: ﴿حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ فالحتم: القضاء والإيجاب، وإحكام الأمر (Al-Fairuza' badi :2008.984). فالمعنى: واجباً مفروغاً منه بحكم الوعيد (Al-zamkhshari :2009.3/34).

ولقد توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

أن القرآن الكريم أكد مبدأ السببية، واعتبر الأسباب أسباباً جعلية وليست ذاتية، فالأسباب داخلية في قسم الممكنات التي تتسلط عليها القدرة الإلهية فتصرفها كيف شاءت؛ فالسبب لا بد وأن يكون حقيقياً وهو الذي ثبت أنه سبب شرعي أو حسي؛

أن الأسبابَ مهَّما عظمتْ لا تأثير لها إلا بإذن الله، فما أكثر ما يظن بحكم العادة والاستمرار أن الأسباب التي جعلها الله روابط بين المخلوقات على أنها أسباب ذاتية مؤثرة بحد ذاتها بينما هي أسباب مجعولة من قبل الله تعالى؛

الرد على الطبائعيين والماديين الذين ينسبون العلة للمعلول والأثر للمؤثر المادي، وكان بالإمكان أن يخلق الله السبب من غير مسبب والعلة من غير معلول بحكم قدرته الذاتية، ولكن جعل الله هذه الروابط من أجل استقامة الحياة ودوام العيش.

Reference

- Abdul Baqi. Muhammad Fuad (1945M) Al-Mu'jam Al-Fahras Al-Faz Al-Quran, Dar Al-Kutub Al-Misriyyah, Tha 1, Al-Kaherah Misr.
- Al-Asfahani, Abu Nuaim Ahmad bin Abd Allah (1996M), Huliyyat Al-Auliya Wa Tabaqat Al-Asfiya', Maktabah Al-Khanji. Tha 1, Al-Kaherah Misr.
- Al-Baghdadi, Abu Al-Fadli Al-Alusi (1994M), Ruh Al-Amani, Dar Al-Kutub Al-Ilmiah, Tha 1, Beirut Lubnan.
- Al-Bukhari. Muhammad bin Ismail (2018M), Sahih Al-Bukhari, Dar Ibn Kathir, Tha 1, Beirut Lubnan
- Al-Fiaruza'badi. Majid Al-Din Muhammad bin Ya'kub (2008M), Al-Kamus Al-Muhit, Dar Al-Hadis, Al-Kaherah Misr.
- Al-Naisaburi. Muslim bin Al-Hujjaj Al-Qusyairi (2010M), Sahih Muslim Dar Al-KutubAl-Ilmiah, Beirut Lubnan.
- Al-Nasa'i. Abu Abd Al-Rahman Ahmad bin Syua'ib (2014M), Snan Al-Nasa'i, Muassasatun Al-Risalah, Beirut Lubnan.
- Al-Nawawi. Yahya bin Syaraf (1929M), Syarh Al-Nawawi A'la Muslim, Al-Mathba't Al-Misriyyah Bi Al-Azhar, Tha 1, Al-Kaherah Misr.
- Al-Qiarawani. Abu Zaid (2007M), Al-Risalah Fi Fiqh Al-Imam Malik, Dar Al-Kutub Al-Ilmiah, Tha 1, Beirut Lubnan.
- Al-Razi. Muhammad (1981M), Mafatih Al-Ghaib, Dar Al-Fikr, Tha 1, Beirut Lubnan.
- Al-Sa'adi. Abd Al-Rahman bin Nasir (2002M), Taisir Al-Karim Al-Rahman Fi Tafsir Kalam Al-Manan, Dar Al-Salam, Tha 2, Al-Riyadh Al-Sa'udi.
- Shams Al-Din. Muhammad bin Abd Al-Rahman Al-Sakhawi (1985M), Al-Maqasid Al-Hasanah Fi Bayan Kathir Min Al-Ahadis Al-Musytahiratun, Dar Al-Kutub Al-Ilmiah, Tha 1, Beirut Lubnan.
- Al-Tabari. Abu Ja'far (1994M), Jami' Al-Bayan, Mua'sasatun Al-Risalah, Tha 1, Beirut Lubnan.
- Al-Taftazani. Sa'ad Al-Din (2001M), Syarh Al-Maqasid, Dar Al-Kutub Al-Ilmiah, Tha 1, Beirut Lubnan.
- Al-Zamkhshari. Abi Al-Qasim (2009M), Tafsir Al-Kashaf, Dar Al-Makrifah, Tha 3, Beirut Lubnan.